

الحوار الديني وأسس التعايش بين الأديان، قراءة تحليلية في مدلول الحوار عند محمد الطالبي

**Religious dialogue and the foundations of coexistence between religions,
an analytical reading in the meaning of dialogue according to
Muhammad Talbi**

بوبكري مصطفى*

جامعة مستغانم / الجزائر (boubkeri27@gmail.com)

تاريخ الاستلام : 2021/06/30 ؛ تاريخ القبول : 2022/04/04 ؛ تاريخ النشر : 2022 / 05 / 20

Abstract

المخلص

This study aims to shed light on the issue of religious dialogue and its role in promoting peaceful coexistence between religions. During which religions try to describe it in order to enhance communication and coexistence, and this study sheds light on the viewpoint of the researcher and thinker "Mohammed Al-Talbi" on the issue of inter-religious dialogue (Judaism, Christianity and Islam), by focusing on Islam's view specifically on this issue and its rooting within the Arab-Islamic culture and thus Establishing a culture of tolerance and acceptance of others and the renunciation of violence between different religions.

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على مسألة الحوار الديني ودوره في تعزيز التعايش السلمي بين الأديان، فهو من المفاهيم الأكثر انتشاراً وشيوعاً قديماً وحديثاً، وهذا راجع بالأساس إلى طابعه الحوارية المبني على فكرة التّحاور والتّقارب والتّفاهم، هذه السّمة جعلت منه الأساس الذي سعت من خلاله الأديان إلى محاولة توصيفه بغية تعزيز التواصل والتعايش، وتسليط هذه الدراسة وجهة نظر الباحث والمفكر "محمد الطالبي" من مسألة الحوار الديني بين الأديان (اليهودية والمسيحية والإسلام)، وذلك من خلال التركيز على نظرة الإسلام بالتحديد لهذه المسألة وفي تأصيلها ضمن الثقافة العربية الإسلامية وبالتالي التأسيس لثقافة التسامح وتقبل الآخر ونبذ العنف بين مختلف الأديان.

Keywords: religious dialogue, Islam, Christianity, coexistence, tolerance, evangelization.

الكلمات المفتاحية: الحوار الديني، الإسلام، المسيحية، التعايش، التسامح، التبشير.

1. مقدمة:

تعتبر مسألة الحوار الدّيني من أهم المفاهيم الأكثر تداولاً وانتشاراً منذ القديم وحتى اللحظة الزّاهنة، وهذا راجع إلى طابعه الحواريّ المبني على فكرة التّحاور والتّقارب والتّفاهم، بيد أنّ الوقوف عند ضبط مدلولاته نجد أنّها متباينة ومختلفة، وهذا راجع بالأساس إلى اختلاف وجهات النّظر للخطابات السائدة، فهناك من هو متعلق بالجانب العقائدي وهناك من هو متعلق بجانب الحوار بين الأديان المرتبط بالواقع وذلك وفق المتطلبات والمستجدات المعاصرة.

فالحوار الدّيني قد عرّفه البعض بأنّه هو ((أن يتبادل المتحاورون من أهل الديانتين الأفكار والحقائق والمعلومات والخبرات، التي تزيد من معرفة كل فريق بالآخر بطريقة موضوعية، تبين ما قد يكون بينهما من تلاقٍ أو اختلاف، مع احتفاظ كل طرف بمعتقداته في جو من الاحترام المتبادل والمعاملة بالتي هي أحسن، بعيداً عن نوازع الشك والتجريح، بل ما يرجى منه هو إشاعة المودة وروح المسالمة والتعاون فيما يقع التوافق فيه من أعمال النفع العام للبشرية)) (الحسن، 1997، ص 13).

ومعنى ذلك أنّ الحوار الدّيني هو ذلك الذي يجري بين ديارتين متباينتين، بقصد الفهم المتبادل والإفادة والاستفادة وتجاوز الجهل بالآخر، وهذا ما من شأنه أن يزيد الرؤية وضوحاً والفهم اتساعاً، كما يؤكد على منطلقات الحوار الأساسية الواجب التّحلي بها، وعلى أهداف الحوار الدّيني.

وهناك مدلول آخر للحوار الدّيني يركز على الجانب الدّاخل وعلى الحريات الفردية والجماعية والذي يرى أنّ الحوار الدّيني هو ((مجمل العلاقات بين الأديان الإيجابية والبناء مع أفراد أو جماعات العقائد، بغية مزيد من التّعارف والإثراء مع الطاعة الكاملة للحقيقة واحترام حرية كل فرد)) (العزیز، 2001، ص 130).

ويذهب الباحث "عبد الحليم آيت امجوض" من خلال مؤلفه "حوار الأديان" إلى إيراد مدلول يبدو أكثر ملائمة مع التّعريف السّابقة إذ يقول ((المراد بحوار الأديان جميع الحوارات التي تجري بين

معتقي أديان مختلفة، أفراداً أو جماعات، شفوية كانت أو مكتوبة أو مرقونة، رسمية كانت أو أهلية، عامة كانت أو خاصة عقدية كانت وواقعية)) (أمجوز، 2012، ص 78)

فهذا المدلول سيحيلنا إلى التعريف الواقعي المعاصر لحوار الأديان الذي يحتل مكانة متميزة اليوم، الأمر عائد بالأساس لارتباطه الوثيق بالواقع واتصاله بحركة التعايش بين معتقي الأديان المختلفة في الوطن الواحد أو في العالم كله ((لذلك تدخل فيه دراسة كافة القضايا المتعلقة بالواقع المشترك بين الأديان، سواء محلياً أو وطنياً أو دولياً، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وأمنياً، كقضايا الأقليات وحقوق الإنسان والسلم العالمي وغيرها)) (أمجوز، 2012، ص 104).

وإذا ما حاولنا الوقوف عند مدلولات وحركية الحوار الديني في تصور الديانات التوحيدية الثلاثة، فإننا سنجد هناك تمايزاً من حيث المواقف والإجراءات، ففي الديانة اليهودية نستطيع القول بأن اليهود ((وبحكم ما آلت إليه ديانتهم، لم تعد دعوة ولا تبشير بديانتهم، ولا يضعون في مخططاتهم وبرامجهم هدف التأثير على العالم لأجل إدخاله في اليهودية، وهو أمر ناتج عن اعتقادهم بأن اليهودية دم مقدس، وشرف رفيع لا يستحقه من لم يكن من سلالة يهود العرقية، هذا فضلاً عن معتقداتهم العنصرية الاقصائية المبنية على مقولة "شعب الله المختار"، ولهذا يصعب تصور نشأة حوار واقعي جدي بقصد التعايش من جانبهم في نطاق سيادتهم)) (أمجوز، 2012، ص 113).

أما بالنسبة للديانة المسيحية، فلقد كان موقفها متبايناً من نصب العداء للإسلام والتكثير به، إلى فتح أبواب الحوار والنقاش معه، فقد شهدت الانطلاقة الرسمية لمسألة الحوار إثر المجمع الفاتيكاني الثاني (1959-1965) للكنيسة الكاثوليكية، بإشراف البابا "بول السادس Paul VI" الذي تعرض إلى قضية خلاص غير المسيحيين وقد أصدر هذا المجمع وثيقة حول "علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية" (Nostra Aetate) نظر فيها إلى بقية الأديان نظرة تسمو عن الاتهامات بالهرطقة لأول مرة، ودعا إلى احترام كل الأديان مما شكّل انقلاباً في موقف شبه بالانقلاب الكوبرنيكي.

وقد جاء في تلك الوثيقة التصريح بشأن الإسلام ما يلي ((إنّ الكنيسة تتظر بعين الاعتبار أيضاً إلى المسلمين الذين يعبدون الإله الواحد الحي القيوم الرحيم القادر على كل شيء، خالق السماء

والأرض ومكلم البشر، الذين يجتهدون ليخضعوا بكليتهم حتى لأوامر الله الخفية، كما خضع له إبراهيم، الذي يسند إليه بطيبة خاطر الإيمان الإسلامي، وإنهم يجلون يسوع كنبي وإن لم يعترفوا به كإله، ويكرمون أمه مريم العذراء كما أنّهم بتقوى يتضرعون إليها أحياناً، علاوة على ذلك فإنهم ينتظرون يوم الدّين عندما يثبت الله كل البشر سيما بالصلاة والزكاة والصوم، وإذا كانت قد نشأت على مر القرون منازعات وعدوات كثيرة بين المسيحيين والمسلمين، فالمجمع المقدس يحض الجميع على نسيان الماضي والانصراف بإخلاص إلى التّفاهم المتبادل، وأن يصونوا معاً العدالة الاجتماعية والخير الأخلاقية والسّلام والحرية لفائدة جميع النّاس)) (جورافسكي، 1996، ص13).

إنّ هذا التّصريح من طرف المجمع الفاتيكاني الثّاني، هو بمثابة انقلاب ومراجعة لمسألة الأديان والبحث في إمكانية الحوار والتّفاهم معها، وهذا الانقلاب مردّه إلى جملة من العوامل لعلّ من أبرزها:

- ما مارسه بعض المسيحيين الأكاديميين بكتاباتهم من ضغط على الكنيسة دفع بها إلى مراجعة مواقفها، ومن أبرزهم "لويس ماسينيوس Louis Massignon" (1962-1883) فيما يتعلق بالإسلام.

- سعي الكنيسة إلى تأكيد التّسامح تأثراً بأفكار الحداثة، وإلى إحلال السّلم بين الأديان مساهمة في ترسيخ هاجس السّلم العالمي الذي فرضته الحرب العالمية الأولى والثّانية وغدّته الحرب الباردة.

- الحيلولة دون خطر الشّيعوية بالانفتاح على شعوب العالم الثّالث وتأكيد التّعاون بين الأديان صدأً لخطر الإلحاد.

لقد قابل المسلمون ذلك التّصريح بارتياح كبير، وانخرط عدد كبير منهم عملياً في الحوار الدّيني ويعتبر محمد الطالبي أحد أبرز المهتمين بهذه المسألة والذي سنهت بمساهمته في ذلك الحوار ومدى تجديد الفكر الإسلامي عنده ارتباطاً بهذه القضية، سيّما وهو الحائز على "جائزة هيروشيما للسّلام 1995، وجائزة جيوفاني انجلي Giovanni Angelli للحوار بتاريخ 4 جوان 1997" (النوي، 2016، ص127).

غير أنّه وجب الوقوف عند تصور المسلمين لمداول الحوار الدّيني الذي لطالما حتّ على الحوار بين الأديان وعلى الإقرار والاعتراف بها، وهذا ما دلت عليه آيات كثيرة* وردت في القرآن الكريم، فهاته الآيات تكرّس للحوار الدّيني التي منها يستمد شرعيته، ومنها يحث المسلمين على التّحاور بين أهل الدّينانات الأخرى، وبخاصة أهل الكتاب منهم.

ولهذا فإنّنا نجد مسألة الحوار متجلّية في جميع الدّينانات التّوحيدية على اختلافها، فالله سبحانه وتعالى يخاطب الناس جميعاً على اختلاف مذاهبهم واختلافاتهم، وفي هذا يقول الطّالبي ((فما دام أن الله يخاطب النّاس فكيف لا نحاور جميع النّاس؟! الله يحب كل خلقه ويحب لهم الخير والهداية والسعادة، ومهما كانت الاختلافات بيننا وبين أهل الكتاب عميقة جذرية وغير قابلة للتّفاوض والتّجاوز، فإنّ المقام المشترك الذي يجمعنا في الإيمان بالله وباليوم الآخر أساسي، وحب الخير والغير يؤهلنا في كثير من الميادين أن نتحدث لغة واحدة، فيجب أن يصغي بعضنا إلى بعض ولا يتم ذلك إلّا بالحوار)) (محمد، 1992، ص154).

وتجدر الإشارة إلى أنّ الفكر الإسلامي القديم لم يصغ علاقته بالأديان الأخرى على أساس الحوار وإنّما على أساس الجدل ويتمثل في مناظرة أهل الدّينانات الأخرى بغرض بيان تهاافت مقالاتهم والطعن في نصوصهم الدّينية سيما أهل الكتاب، ويدخل الجدل عامة في باب علم التّوحيد، وقد غدّت ذلك الجدل نزعة نشر الإسلام على الأرض كافة وطبيعة تصور المؤمن لدينه ووظيفته في خدمة ذلك الدّين، فهل استطاع الطّالبي من القطع مع الفكر الإسلامي قديماً؟ وما هي أهم القضايا التي يثيرها مفهوم الحوار الدّيني عنده؟

لقد اهتم الطّالبي بالحوار الدّيني اهتماماً شديداً، فخصّه بمؤلفه البكر "الإسلام والحوار" سنة 1972 (Islam Et Dialogue) وما فتئ يساهم في النّدوات المنعقدة حوله، أو الدّوريات التي تعنى به، بل ندر أن نعثر على حوار من حواراته، أو مقال أو مؤلف من مؤلفاته، لا يثير قضية الحوار بين الأديان إثارة متعجلة كانت أو عميقة وقد خصص الطّالبي لتلك القضية ما يقارب الثّلاثين مقالاً وحواراً، وخصها بكتابين الأول "الإسلام والحوار" Islam Et Dialogue سنة 1972م

والثّاني "الإصرار على الاحترام Respect Têtu" سنة 1998م، فما هو مفهومه للحوار الدّيني؟ وكيف أسّس لذلك المفهوم؟.

يقدم الطالبي تعريفات عديدة للحوار الدّيني تدور كلّها حول الاعتراف بالاختلاف وتثّمّنه، نورد منها هذا التعريف القائل أنّ ((الحوار هو شكل من أشكال الإصغاء المتبادل -دون تكتيك ولا استراتيجية ودون قيود فكرية- هدفه الأساسي التعرف المباشر إلى الآخر في جو من التعاطف القائم على الثقة ومن الانفتاح بغاية استجلاء إمكانيات العمل المشترك عند الاقتضاء، فالحوار ليس وسيلة وإتّما غايته في ذاته)) (M.Talbi, 1989, p. 96) ، فالحوار عنده دوافع وشروط وأهداف لا نرى بُدّاً من الإشارة إليها حتى يمكن لنا الإحاطة بهذا الغرض.

فالأَسباب الدّافعة يمكن حصرها في سببين اثنين، يتمثل الأول في ما يفرضه العصر من انفتاح على الآخر أيا كان بحكم ثورة الاتصالات الحديثة وعولمة الثّقافة، وبتعبير الطالبي ((إلى ما تفرضه النّزعة الإنسانية القيمة الحديثة من تأكيد على التّسامح تبعاً لتأكيدّها على كرامة الفرد وحرمة المعتقد)) (M.Talbi, 1989, p. 93)

ويعود السّبب الثّاني إلى إلقاء الحضارة المادية وحظر الإلحاد المتدينين إلى النّضامن في ما بينهم ((فلم يعد التّعارض قائماً حول مفهوم الله ومفهوم الايمان بل ظهر انقسام عميق بين الذين يريدون صنّع مصير الانسان بمعزل عن الله والذين لا يستطيعون صنعه إلّا بالله وفي الله)) (M.Talbi, Islam et dialogue, Réflexions sur un thème d'actualité, 1972, p 20). ويحصر الطّالبي شروط إنجاز مثل ذلك الحوار في "تجاوز الجدل العقيم والكفّ عن الطّعن في عقائد الغير والإقرار بتعدد طرق الخلاص وتجديد اللاّهوت تجديداً يؤسس للتّسامح والكفّ عن التّشهير (M.Talbi, Islam et dialogue, Réflexions sur un thème d'actualité, 1972, p. 18) وبهذا يمكن اعتبار موقفه هذا انقلاباً في الفكر الإسلامي التّقليدي القائم على الحجاج وتكفير المخالف والطّعن على غير المسلم ووسم نصوصه بالتّحريف والفساد، إذ يرى في ذلك الطالبي أنّ ((روح الجدل قد تتسبب في العصر الوسيط في الخراب المادي والفكري والأخلاقي

(...) علينا أن نحرص على إخماد جذوة هذا الجدل)) (M.Talbi, Islam et dialogue,

Réflexions sur un thème d'actualité, 1972, p. 19)

أما فيما يخص أهداف الحوار فإنّ الطالب يشدّد على أنّ الحوار هدف في حدّ ذاته، ولا شك أنّ ذلك لا يعني عنده أنّ الحوار مجرد حوار وإنّما أفصح عن المراد من الحوار في كتابه "الإسلام والحوار" فحصره في تحقيق المعرفة بالآخر وتبادل الأفكار والخبرات ومجابهة الأسئلة الكونية معاً وإرساء السّلام في الأرض ودفع المؤمن إلى تجديد فهمه لعقيدته، وبالتالي فالحوار عنده لم يعد يعني التّشهير أو تحريف الآخر عن دينه، بل أصبح ((يقوم على قاعدة قبول واحترام الغير كما هو وكما يريد أن يكون، مشروع جديد وليد عصر جديد، وعقليات جديدة، وعلاقات حديثة بين الدّول والشّعوب على أساس قبول التعدّدية)) (محمد، 1992، ص180)، ولعلّ هذا التّصور نفسه نجده عند "علي أوّمليل" الذي حدّد من خلاله مدلول التّسامح بقوله أنّه ((قبول الاختلاف)) (أوّمليل، 1985، ص 114).

وهكذا يبدو الطالب جريئاً على قلب ما استقر في الضّمير العقدي والشّعبي على حد السّواء من رمي غير المسلمين بالزّيغ والتّحريف في أحسن الحالات، والكفر في حالات كثيرة، بل أنّه بوصف النّوي ((يتخطى حواجز نفسية ثقافية وتاريخية شديدة الكثافة لعلّ أهمّها اقتران المسيحية في المخيال الإسلامي بالحروب الصليبية في العصر الوسيط والاستعمار في العصر الحديث)) (النوي، 2016، ص 129)

وبالتّالي فما يمكن قوله أنّ الحوار الذي يدعوا إليه الطّالبي يقوم على نقض فكرة المؤمن قديماً عن نفسه ودينه وعلى انتاج حقيقة جديدة ليست هي الحقيقة الدّينية القديمة، فالعالم عنده لم يعد منقسماً إلى مسلم وغير مسلم أو دار الإسلام ودار الحرب، ولم يعد المؤمن في مفهومه مالكاً أوحد للحقيقة هي الدّين الحق الذي لا يضاهي وما دونه باطل، بل يخرج المؤمن بدينة من مركزية في النّظر إلى ذات طالما كانت سمة الشّعور الدّيني إلى موقف نسبي يقر فيه بتعدد الحقيقة يقول في ذلك الطّالبي ((لقد بنيت كل الأنساق اللاهوتية القديمة على المسلمة القاضية بشكل أو بآخر بأنّه لا خلاص خارج الكنيسة (...)) ولكن ليس من المستحيل في الإسلام كما في المسيحية وفي كل

الأديان الأخرى أن نستنبط اعتماداً على النصوص وعلى بعض السنن التبولوجية القديمة تيولوجيا تؤسس لتعدد طرق الخلاص والنجاة)) (M.Talbi, Islam et dialogue, Réflexions sur un thème d'actualité, 1972, p. 25) وهذا ما سيدفعنا إلى محاولة الوقوف عند طرق تأسيس هذه التيولوجيا؟.

يؤسس الطالبي موقفاً من الحوار بالاستناد إلى مرجعية دينية، وأعتبر أنّ النص القرآني يدعو لذلك وإلى نبذ العنف واحترام المخالف، ومن ثمة السبيل إلى تعدد طرق النجاة، فالقرآن من منظوره يعدّ مرجعاً ممتازاً في القول بالتسامح واللين مع غير أهل الملة، واستدل على ذلك بالآية الكريمة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. (العنكبوت، الآية 46)، فعذ تلك الآية وشبهاتها من القرآن جوهره، فلا حرج على المسلم إذن من الحوار بل إنه بالحوار إنما يحيي سنة قرآنية.

وتجد مقولة التسامح عنده مرجعها في إقرار القرآن الحرية الدينية، وإقراره نجاة المؤمن إن لم يكن مسلماً وذلك بنص الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. (سورة البقرة، الآية 62)

ولمّا كان الحوار إقرار بالاختلاف واحتراماً للمخالف، فإنّ تلك الرؤية تتسجم عنده أشدّ الانسجام وإرادة الله كما يعرضها القرآن كقوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (سورة النحل، الآية 93) ومن ثمة ((كان احترام الاختلاف احتراماً لإرادة الله في الاختلاف)) (M.Talbi, Islam et dialogue, Réflexions sur un thème d'actualité, 1972, p. 48)

فهذه الآيات تستدعي نقيضها وهي الآيات الدّاعية إلى الشّدة على المخالف والطعن فيه، لذلك نرى الطالبي يحاور آيات السيف قائلاً ((علينا أن نفسر الإرث الأليم لتجاوزة، فالإسلام في الوعي السائد يظهر على أنّه دين العنف لا دين الحوار وعلينا توضيح الامر (...)) فالقرآن وقد أوحى به

زمان معين ومكان وحدد وتلبس بالتاريخ وخضع للملابسات كان عليه ان يتناسق مع ذلك العصر (...). وهكذا توجد آيات عديدة تدعو إلى الجهاد وتعد الشهداء بالجنة، وبهمنا لأن نبين أن لهذه الآيات قيمة ظرفية مرتبطة أساساً بظروف خاصة تجاوزناها اليوم وهي آيات لا تترجم الرّوح العميقة الدائمة للرسالة القرآنية، هذه الرّوح التي ترتكز على السلام)) (M.Talbi, Islam et dialogue, Réflexions sur un thème d'actualité, 1972, p. 10) ومن خلال ذلك انتهى الطالب إلى حصر مقولة الجهاد في جهاد النّفس نافياً عنه كل ما يتصل "بالعنف المقدس".

إنّ هذا التّصور الذي قدّمه الطالب يختلف عن التّصور التقليدي الذي قدّمه السيوطي لآية السّيف، إذ اعتبر الطّالبي أنّ تلك التّفسير ناسخة لآيات العفو جميعاً، وقد اتّسم تعامله مع النّص القرآني بالتأرجح بين اقتطاع آيات واعتبارها جوهر الرّسالة دون ربطها بظروف التّنزيل، وردّ آيات أخرى بحجة ارتباطها بالعصر الذي قد نزلت فيه، وهكذا تكون لبعض الآيات قيمة مطلقة ولآيات أخرى قيمة ظرفية وتلك ثنائية متجلية في علوم القرآن قديماً من ثنائيات تفسيرية كالمطلق/المقيد أو الخاص/العام، وبهذا يكون منهج الطالب تقليدياً في بنيته أبعد من السّهم الموجه الذي دعا إليه.

والحال أنّ عدم توظيف الطّالبي للسّهم الموجه في هذا التّصور هو أنّ السّهم الموجه يقوم على تتبع تطور نزول النّص والسير في اتجاهه، وإذا سار في نهجه فإنه سيقوه عكس ذلك، فالقرآن مر من مرحلة الدّعوة السّلمية بمكة وحادثة عهد المسلمين بالمدينة إلى مرحلة الدّعوة إلى الجهاد المسلح التي بلغت ذروتها عام فتح مكة مثلما تشير إلى ذلك آية السّيف وهي من آخر ما نزل من القرآن.

فهذه القراءة تقوم على "التّفنن" في انشاء العلاقة مع النّص المقدس وعلى حاجيات المؤول على خطابه مما جعله يسقط هواجس المعاصرة على القرآن دون مراعات سياقات الخطاب القرآني.

وبالتّالي فوعي الطّالبي بأنّ الحوار الدّيني مشروط بالقول بتعدد طرق النّجاة دفعه إلى تأويل التّصور التقليدي الرّاسخ في القرآن بأحادية طرق النّجاة كتفسير الآيات التّالية ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة آل عمران، الآية 85) والآية ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُولُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (سورة آل عمران، الآية 19).

فقد لجأ الطّالبي إلى توسيع مفهوم الإسلام لينسجم وما قرره سابقاً وذلك باختزال الإسلام في الإيمان بالله دون أن يشترط توحيداً على حرف ولا تصديقاً بنبوة محمد ولا إيمان بالقرآن، والطريف أن يُدلف الطالبِي إلى ذلك من خلال ما يؤصّل به القرآن لنفسه من أنه تمام ديانة إبراهيم، يقول الطالبِي ((إنّ مهمة محمد تواصل وتتم مهمة إبراهيم ومهمة سابقة ولاحقية في معنى الآية القائلة ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ أي تسليم النفس بهدوء وثقة بين يدي الله الواحد وهذا هو المعنى الأصلي الأساسي لكلمة الإسلام (...)) أنّ يكون المرء مسلماً معناه أن يؤمن بالإسلام كما عرفناه سابقاً أي أن يؤمن بالله كما آمن إبراهيم)) (M.Talbi, Foi d abraham et Foi islamique, 1979, p. 5).

فهذا التّوسيع يُسهم في ترسيخ الحوار لما يوفره معنى الإسلام ذاك من إيجاد سند "تاريخي" مُشترك بين الأديان التّوحيدية الثلاثة: الإسلام والمسيحية واليهودية وهو عين ما استند إليه بيان الفاتكان الثّاني، وبذلك تكون القرابة ويسهل حينئذ الحوار بين الإخوة.

إنّ الطالبِي إلى جانب القرآن يؤسس للحوار الدّيني ومقولة التّسامح بالاستناد إلى سيرة الرّسول خاصة ما تضمنته الصحيفة من تعاون بين الجماعة المسلمة الناشئة وأهل الكتاب بالمدينة وعلى التّراث الصوفي، فيشير إلى قول الغزالي بنجاة غير المسلمين في كتابه "فصل التفرقة" (M.Talbi, "Islam et dialogue, Réflexions sur un thème d'actualité, 1972, p. 26) بالإضافة إلى ضرورة القول بتعدد طرق النّجاة فإنّ الحوار مشروط عنده بالكفّ عن التّبشير، نظراً لما يحتوي عليه من إيمان بنديّة الأديان بعضها ببعض، والإسلام والمسيحية يسعيان إلى الكونية مما يطرح إشكالية في فهم الحوار واجرائيته والقائمة على أساس الدّعوة لذلك.

إنّ الدّعوة كمصطلح في التّصور الإسلامي تعني نشر الدّين، والذي يقابله في المسيحية مصطلح التّبشير، فهذين المصطلحين يطرحان إشكالية علاقة المؤمن بغيره من غير المؤمن، وإشكالية الوفاء لطبيعة الدّيانة، وبالتالي فالجدال الحاصل قديماً كان في أساسه من باب التّبشير أو الدّعوة،

((فالتبشير في المسيحية والدعوة في الإسلام ينطويان في الأساس على احتكار الآخر لذلك يبدوان نقيضين للحوار)) (النوي، 2016، ص 133) فكيف نظر الطالب لهذا الإشكال؟

يشترط الطالب لقبول سعي الكنيسة الكاثوليكية إلى تحقيق التقارب مع المسلمين أن لا تغلف تلك الدعوة نزعة متخفية هي اختراق صفوف المسلمين للتبشير بينهم، وهو ما يسميه بـ "الحوار-الشخص" (M.Talbi, Respect tête (en collaboration avec Oliver "Dialogue-hameçons Clément, 1989, p. 94)

في كتابه "الإصرار على الاحترام" (Respect tête) وهو نفس ما عبّر عنه منذ مؤلفه المبكر "الإسلام والحوار"، يقول في ذلك ((إذا فهمنا الحوار على أنه منهج جديد لنشر الديانات وطريقة لاستئصال عقائد الغير فإننا سنجد أنفسنا في الموقف نفسه الذي وقفه أسلافنا في القرون الوسطى)) (M.Talbi, Islam et dialogue, Réflexions sur un thème d'actualité, 1972, p. 18).

إن الطالب قد وعى تفوق الغرب المسيحي وحركيته وغناه الفكري والمادي في مقابل جمود الفكر الإسلامي وفقره، واعتبر أن المسيحية تمتلك عوامل النجاح في اجتذاب الناس، مما جعله يصر على طرح قضية التبشير المسيحي والتدبير بممارسات الكنيسة التبشيرية في العالم الإسلامي خصوصاً الأفريقي منه.

غير أن إيمانه بعالمية الإسلام حالت دونه وسحب ذلك على المسلمين، بل إنه يدافع عن ضرورة تبليغ العقيدة معتمداً على حجتين: تتمثل الأولى في القول بأن الدعوة لا تناقض حرية التدين ((دعا" لا يعني "بشر" وإنما "استدعى" والدعوة استدعاء، نداء توجهه والقرآن مادية الله كما يقر الحديث النبوي، وإذا ما استدعينا الناس جميعهم فإن كل واحد منهم يظل حراً في قبول الدعوة أو رفضها (...)) فالحرية لا تمنع من تبليغ الرسالة ولا تناقضها وإنما المحدد في ذلك طريقة تبليغ العقيدة)) (M.Talbi, Liberté religieuse et transmission de la foi, 1986, p. 37).

أما الحجة الثانية فهي "اعتباره تبليغ العقيدة علامة محبة للآخر، وسعياً إلى الإجابة عن أسئلة عوضاً عن اللامبالاة والحياد البارد" (M.Talbi, Liberté religieuse et transmission de

(la foi, 1986, p. 38)، فهذا التبليغ وتلك الدعوة ماهي إلا التقيد بأمر القرآن والقيام بالوظيفة التي ينيطها بالمسلم التي ليست سوى وظيفة الشهادة، التي نلمسها في الآية الكريمة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (سورة البقرة، الآية 143) .

إنّ الطالبي في تأسيسه للحوار أو التشريع للدعوة يبدو متأثراً بالتعاليم القرآنية، ولكن من جانب آخر ألا يمكن اعتبار فكر الحوار نقيض فكر الدعوة؟ إذ أنّ الأول إصغاء متبادل والثاني اصغاء إلى الذات.

لقد شعر الطالبي بذلك التناقض ومن ثمة عمل على تجاوزه بحيلة كيّسة قوامها الفصل بين المجالين، وأورد ذلك من خلال مؤلفه "عيال الله" يقول في ذلك ((واضح أننا لا نريد ولا نقبل أن ينقلب الحوار إلى مساجلات وإلى حرب أو إلى شرك، ولا مناص من ذلك إذا ما دفعنا به في مآهات التبشير أو الدعوة على السواء (...)) التبشير والدعوة شيء والحوار شيء آخر)) (محمد، 1992، ص 159)

وكذلك تجاوزها أيضا بدعوة قواها التفكير في استثناء وسائل حديثة لا تسيء إلى المخالف، وهو ما عبّر عنه يقوله ((علينا أن نبتكر أدبيات جديدة للتبشير والدعوة تتلائم مع عصرنا وحساسياتنا، وقد حان الوقت المناسب ليفكر المسلمون والمسيحيون في ذلك معاً عوض طريقة تبادل التهم العقيمة)) (M.Talbi, Liberté religieuse et transmission de la foi, 1986, p. 45)

والحقيقة أنّ التبشير أو الدعوة شيء والحوار شيء آخر، إذ لا مجال للفصل بينهما ((فليست الدعوة شيء والحوار شيء آخر)) (النوي، 2016، ص 135) بل هي نقيض الحوار حتماً وذلك لما يتضمنه فعل الدعوة أو التبشير في ذاته من تعال مرده التسليم باستقامة الذات أو المبتشر، وزين الآخر أو المبتشر وما ينطوي عليه من اعتقاد بأفضلية الدين المبتشر، وهذا ما ينتج عنه استحالة تضاييف فعلي الحوار والتبشير إذ يلغي أحدهما الآخر.

وعليه فإنّ الطالبي بتركيزه على إشكاليات الحوار يوقفنا على مدى التمزق العميق الذي أصاب الضمير الديني الحديث بين المرجع العلماني القائم على قيم الاختلاف والمرجع الديني القائم على

المطابقة بين الدّين والعالم، وهو تمزق لمسناه بوضوح في تردّد الطّالبي بين قبول التّبشير أو ردّه أو الالتجاء إلى فصله عن الحوار.

وبالتّالي من خلال ما تقدّم يمكن القول أنّ الطالبي قد تمكن من القطع مع الفكر التّقليدي القديم القائم على الجدل، خصوصاً وقد أكّد تعدد طرق النّجاة ووسع مفهوم الايمان، فالقول بالحوار الدّيني والتأكيد على قيمة التّسامح يُعدّ جديداً على الفكر الإسلامي مقارنة بعصر النّهضة إذ لم ير المصلحون المسلمون كالأفغاني ورشيد رضا في مقولة التّسامح سوى شعار يستهدف تفكيك المجتمعات الإسلامية لتسهيل اختراقها من قبل المستعمل المسيحي، فالاستعمار لعب دوراً مهماً في طبيعة تقلبهم لمقولة التّسامح.

بيد أنّه لا يمكن القول أنّ الطالبي قد تفرّد بالقول بالحوار الدّيني بل وجب التّنبه إلى نقطتين مهمتين أولهما: أنّ جهود الطالبي تتخرط في سياق تفاعل ثلّة من المفكرين المسلمين المعاصرين مع إعلان الفاتكان الثّاني، وقبول دعوته إلى الحوار ولعلّ من ابرزهم "سيد حسين نصر" و"إسماعيل الفاروقي" وغيرهم (Renaud, 1997, p. 111)، وثانيهما: أنّ رؤية الطالبي ورؤية غيره لا تمثل سبقاً في الفكر الإسلامي الحديث إذ يمكن اعتبار "عبد العزيز الثّعالبي" أول المفكرين المسلمين الذين نادوا بالتّسامح وأسسوا لاحترام عقيدة الغير، وذلك في كتابه (روح التّحرر في القرآن) (Abdelaziz, 1985, p. 79)، فعّدّت قراءته قراءة عميقة في مؤلفه ذاك وتبيّن أنّ الثّعالبي يعني بالتّحرر الدّعوة إلى "التّسامح".

يقول في ذلك الثّعالبي ((إنّ ما درسناه وتعمقنا فيه يمثل في العلاقات التي يفرضها القرآن على المسلمين تجاه متبعي كل الدّينيات الأخرى، فهذه العلاقات ينبغي أن تكون علاقات ودّية تحدها روح الصدق والثّقة والمودّة وينبغي أن يسودها التّسامح الدّيني والحرية واحترام رأي الغير)) (Abdelaziz, 1985, p. 79) فهذه الرّؤية تبدى لنا مدى التّماثل بين تصور الطالبي والثّعالبي في التّأسيس للتّسامح الدّيني اعتماداً على القرآن ونبذ الجهاد.

تأسيساً على ما تقدّم يعتبر الطالبي متميزاً في دعوته الملحة إلى الحوار الدّيني والتّأسيس له، وخير دليل على ذلك انتاجاته الغزيرة في هذا المجال، مما يجعلنا نقر بأنّ قضية الحوار الدّيني قد أخذت مركزية في خطابه المبكرة.

قائمة المصادر والمراجع:

- Abdelaziz, T. (1985). *l'esprit libéral du Coran*. Beyrouth: dans Al-Gharb Al-islami.
- M.Talbi. (1972). *Islam et dialogue, Réflexions sur un thème d'actualité*. Tunisie: maison tunisienne de l'édition.
- M.Talbi. (1979). Foi d abraham et Foi islamique. *dans Islamo-christiana* (n5), 2-5.
- M.Talbi. (1986). Liberté religieuse et transmission de la foi. *dans Islamo-christiana*(N12), pp 36-37.
- M.Talbi. (1989). *Respect têtù (en collaboration avec Oliver Clément*. Paris: nouvelle cité.
- Renaud, E. (1997). le dialogue islamo-chretien vu par les musulmans. *dans islamo-christiana*(n23), pp 111-138.
- الحسن، ي. (1997). *الحوار الإسلامي الفرص والتحديات*. أبو ظبي،: المجمع الثقافي، ط.1
- الطالبى محمد. (1992). *عيال الله .. تونس: دار سراس*.
- العزیز، ز. ع. (2001). *الفاثيكان والإسلام*. القاهرة: القدس للنشر والإعلان والتسويق، ط.1
- النوي، م. (2016). *محمد الطالبي وقضايا تجديد الفكر الإسلامي*. صفاقس، تونس، مكتبة علاء الدين، ط: 1: مكتبة علاء الدين، ط.1
- أمجوز، ع. ا. (2012). *حوار الأديان نشأته وأصوله وتطوره*. الرباط وبيروت: دار الأمان للنشر والتوزيع ودار ابن جزم، ط.1
- أومليل، ع. (1985). *الإصلاحية العربية والدولة الوطنية*. الدار البيضاء: دار التنوير.

جورافسكي، أ. (1996). نوفمبر. (01 الإسلام والمسيحية). ت. خ. الجراد (Éd.). سلسلة عالم المعرفة (عدد. 13، 15)

الآيات القرآنية:

* قوله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. (سورة النحل، الآية 125)

- قوله تعالى ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَالْهَنَا وَالْهَكُمُ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. (سورة العنكبوت، الآية 46).

قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. (سورة آل عمران، الآية 64).